أبيـــلارد

اللاهوتي الحـــر

بقلم دكتور إسحق عبيد / مدرس العصور الوسطى
بكلية الآداب جامعة عين شمس

يقول الشاعر مارلو فى التعبير عن انطلاقة العقل بحثاً وراء المعرفة الحرة :

Still Climbing after Knowledge infinite
And ever moving as the restless Sph eres

« ويظل يحلق فيما وراء المعرفة اللانهائية »
« ويسبح أبداً كدوائر لاتهدأ »

ويصدق هذا الوصف أشد مايصدق على بطل مقالنا ، بطرس أبيلاردوس بالاتينوس (١٠٧٩ — ١١٤٢ م) ، فهو الذى أنشد أعذب ألحان الحرية — حرية الفكر — فى تحد صارخ ضد جبروت الكنيسة وأحبارها المتربصين لكى يئدوا كل وليد فكر حر ، فى ذلك الحين الوسيط من القرن الثانى عشر الميلاد . اسمع ابيلارد فى هذه الأبيات اللاتينية المذبة ، وهو يتوسل إلى الطير أن يمن عليه بصمته صامتاً برهة من الزمان ، حتى يشدو هو فيها بعضـــا مما يعتمل فى قلبه من معان وأغان .

Sile, Philomene,
Pro tempore,
Surge Cantilena,
de Pe Ctore

صمتاً أيها المحبوب
من أجل الوقت
ولتخرج الأنشودة من القلب .

ولد أبيلارد لأسرة نبيلة : فوالده هو سيد (لورد) إقطاعية Le Pallet في إقليم بريتاني الواقع إلى جنوبي نهر اللوار بفرنسا .

وقد تلقى أبيلارد الصبي تعليمه في بلدة Loches حيث درس المنطق ما بين عامى ١٠٩٤-١١٠٦ ثم انتقل إلى باريس حيث تتلمذ على يد كل من روسللينوس ووليم من شامبو . ثم اضطلع الفتى بالتدريس في مدارس ميلون وكوربيل . وبعد قليل عاوده الحنين إلى باريس فالتحق بمدرسة وليم دى شامبو (guillaume de Champeaux) ولكنه سرعان ما تمرد ضد أستاذه وهاجم آراءه في مسألة « الكليات » universals

بعد هذا اضطلع ابيلارد بالتعليم في مدرسة مونت سانت جنفياف ، ثم ما لبث أن التحق بمدرسة المعلم أنسلم من لاوون أستاذ اللاهوت المرموق (حوالى سنة ١١١٤ غير أن أبيلارد سرعان ما هاجم آراء أستاذه الكبير . وعاد أبيلارد مرة أخرى إلى باريس ليعلم المنطق واللاهوت في مدرسة نوتردام .

إن هذا الفتى العارف منذ الشباب لم يكن يعرف الاستقرار في مكان واحد فهو يطلب العلم والمعرفة أينما وجدها . وليس أدل على طبيعة مزاجه من أنه كان قد تمرد أول ما تمرد ضد هرم عائلته الإقطاعية ، وضد تقاليد فرنسا والنبالة ، فنجده يتنازل طواعية لأخيه الأصغر عن حقه في الإقطاع ، وكذا عن تقاليد زخرف الفروسية وهكذا مضى ذلك العاشق الولهان وراء نبع المعرفة ينهل منها ، وهو بعد ظمآن حتى إذا ما ارتوت تلك النبتة الأصيلة ، أثمرت فأذهلت أروقة جامعة باريس وبيعها وصالوناتها الأدبية .

بشر أبيلارد بالخلاص وذلك بتحرير العقل وملكاته من أغلال الكلمة الملاة ورق المكتوب ، فحرر بهذا النداء عقلية العصر الوسيط من طغيان الكهنوت ومن صلف الملدانية المجهولة . وسنرى من تاريخ مأساته أنه المصلح الأول للكنيسة ، والرائد لمنهاج الديالكتيكا ، والإلقاء في الحركة الرومانسية .

عندما طبقت شهرة أبيلارد العلمية كل الأفاق طلب إليه أحد كبار رجال الدين في نوتردام ، واسمه فولبير ، أن يقوم بالتدريس لإبنة أخيه الفتاة إلوايز Heloise وإلوايز هذه جد فاتنة فطنة ، وهي بعد هذا تمشق المعرفة الحرة وتبغض القيود . وقع المعلم في غرام تلميذته الجميلة ، وصحت باريس ذات يوم على نبأ هروب الأستاذ الراهب وتلميذته الفتاة وسرت القصة في ربوع فرنسا سريان النار في الهشيم ، فأمست حديث أوروبا كلها . وبينما العلاقة بين الهاربين تثمر جنينا ، كانت لعنات رجال الإكليروس تطارد أبيلارد، فأشاروا إليه على أنه لوسيفر وبعلزبول ، وأذاعوا أنه لابد قد اختطف إلى فوق لكي يطرح به غضب الرب إلى سعير الجحيم حيث البكاء وصرير الأسنان ! هذا بينما تناقل الشباب على ضفاف السين غـزل أبيلارد وعشيقته في غابات فرنسا وبراريها ، وراحوا ينشدون هاتيك الرومانسيات على قارعة الطريق وعلى أعتاب الكاتدرائيات ونوتردام . استمع إلى إيلوايز ، وهي الآن زوج في الخفاء لأبيلارد تخاطبه تقول :

« كل المدائن ، لابل والقرى كلها هبت لتنعم بحسن مقدمك :

وتلك العيون جميعا لاتملك إلا أن تحملق في وجهك ، أيا زينة الرجال »

ولكن فولبير - عم الفتاة إلوايز قد نجح في الانتقام من أبيلارد فلقد استأجر من أوقع به في الشرك ، وقاموا بخصي الرجل وحرمانه من كينونة الرجولة .

لكن جولياث لم ينهزم ، فالدنيا كلها تلهث من خلفه ، وهو الآن يحمل على كتفيه جثة مأساته ، وإنما هو يتوقف بين الحين والحين ليلتقط هراوة هرقل (وهي هنا قلم أبيلارد ويراع الحرية) ليحطم بها كل المسلمات من القضايا عند الناطقة والفلاسفة ورجال اللاهوت . إنه رجل الديالكتيكا !!

وهذا يقودنا إلى البحث في فكر أبيلارد .

كانت الفلسفة التى تشغل العصر الذى ظهر فيه أبيلارد تدور حول القضايا الكلية Universals ، وتقصى العلاقة بين الكليات (أو النوع genere) وبين جزء (فرد) هذا الكل أو النوع .

وتلكم هى قضية العام والخاص فى الوجود . وكانت مشكلات هذه القضية مطروحة لدى العارفين فى تساؤلات من قبيل : الصلة بين كلى مجرد كقولنا « حيوان » أو « آدمى » بالنسبة إلى ملموس الواحد الفرد فى عوالم الآدمية أو بين مملكة الحيوان. ثم هل هذه المسميات الكلية هى مجرد مدركات عقلية أم أن لها واقعاً محسوساً؟

وكانت نوعية الإجابة على هـــذه الأسئلة هى الفيصل بين نهجين مختلفين من الفلسفة فى ذلك العصر : فكانت هنالك مدرسة الإسميين Nominalists ثم مدرسة الواقعيين Realists .

أما الإسميون فقد رأوا أن الكليات هى مجرد مسميات أو مدركات لا وجود لها إلا فى اصطلاحنا العقلى ونعبر عنها فى دلالاتنا الصوتية Flatus Vocis ، ذلك لأن ليس لها ترجمة فى الواقع الملموس ، أما الكينونة والوجود فهى من حق الخاص أو الجزء أو الفرد لهذا المدرك العقلى أو ذاك .

هذا فى حين أن أتباع المدرسة الواقعية قالوا بأن للكليات وجوداً أسبق لوجود الفرديات ، كما وأن كل جزء يحمل فى طياته جوهر كله (نوعه) .

أما أبيلارد فقد طرح كل هذه القضايا من جديد وقام بسلبها Negatiou أى عراها تماما وراح يتناولها بمنهج الشك أى أنه يضع السؤال ويتقصى جوابه ، ثم يناقش ضـــديات ما قد يصل إليه من جواب . طرح أبيلارد من جديد الأسئلة الثلاثة التى أردها الفيلسوف Porhpyry فى كتابه بعنوان Isagoge دون أن يقدم لها جوابا شافيا . ثم أضاف أبيلادر عليها سؤالا رابعامن عنـــده . وهى تجرى كالآتى :

١ ــ هل للكليات واقع أو وجود ، أم أنها مجرد مدركات عقلية؟

٢ ــ وإذا افترضنا أن للكليات واقعاً ، فهل هذا الواقع أو الوجود محسوس (مادى) أم غير محسوس (غير مادى) ؟

٣ ــ هل وجود الكلى قاصر على ذاته لذاته، أم أن له وجوداً فى المحسوسات؟

٤ ــ إذا قلنا بأن لا وجود للجزء ، فهل رغم هذا يكون لكل (نوع) هذا الجزء وجود ؟ أو بطريقة أخرى: هل وجود الكل وقف على تواجد جزءه أم لا ؟

كان الفيلسوف بوء ثيوس (٤٧٠ ــ ٥٢٥ م) هو أول من حاول إيجاد حل لهذه المشكلات فقال بأن الجزء (الخاص ــ الفرد) إن هو إلا تجسيد للكل ، بمعنى إن الخاص فى خواصه المادية وأعراضه الملموسة يمثل كل هذا الخاص. وساق مثالا على هذا بأن كلا من أفلاطون وارسطو ــ على سبيل المثال ــ إن هما إلا تعبيران فرديان للنوع وهو « الإنسان » . وهذا المصطلح الأخير (الإنسان) ليست له دلالة مادية، ولا يمكن إدراك هذا المصطلح إلا إدراكا عقلياً مجرداً . وبوء ثيوس على هذا هو رائد المدرسة الواقعية فى العصور الواسطى .

أما الفيلسوف روسلينوس ومدرسته فيرون أن الوجود قاصر على الخاص فحسب ، أما الكليات (العام) فهى مجرد تسميات أو ألفاظ (VOX) . وهذه هى المدرسة الإسمية .

هاجم أبيلارد المدرستين . الأولى ــ الواقعية ــ لأنها تنكر على الخاص جوهره أو كيانه ، وهذا ــ فى رأيه ــ ضد طبيعة الأمور : فإذا سلمنا بقول الوقعيين أن الجوهر موجود قبل خلق الخاص (أو الجزء) ، فمعنى هذا أنه لن تكون هناك فوارق فى الصفات بين فرد وآخر ، لأن جميع الأفراد يشتركون فى جوهر واحد . والأخطر من هذا ــ وفقا لذات النظرية ــ أن الإنسان يصبح شريكا

للحيوان — كالكلاب والخيل — فى الأصل genere وبذلك تختلط الأصول العاقلة مع غير العاقلة .

كذلك عاب آبيلارد على الإسميين إنكارهم التام للكليات ، واهتمامهم الزائد بالخاص .

كان على أبيلارد بعد هذا أن يقدم مفهوما مقنعا للكليات ، وفى هذا نجده يقول إن الكل هو ما يتواجد فى الأشياء من صفات وخواص وليس للأشياء ذاتها، فهو ليس جوهر الجزء أو الشىء وإنما هو خواصه . وفى حالة الفرد الآدمى فإن الكل يعنى لا الإنسان الفرد فى حدذاته وإنما كيان هذا الإنسان ، وهى الحاجة السائدة فى كل أفراد الجنس الآدمى برمته . ولما كان من المتعذر الفصل بين هذه الخاصية وبين الفرد ذاته ، فإنه لايمكن فهم كنه الكل إلا من خلال الجزء . وقد خلص من هذا إلى قوله الشهير :

« إن الكل إن هو إلا مفهوم يستنبطه العقل من خلال الجزء ، ذلك لأن كل إدراك واع — على مايبدو — إنما منبعه من الجزء . وعندما نلمس الجزئيات بمعونة حواسنا ، نبدأ فى إدراكها فى الصور العقلية » .

وفى اللاهوتيات وضع أبيلارد كتابه « نعم ولا Sic et Non وفيه يطرح المؤلف عديداً من المسائل اللاهوتية فى صيغة السؤال ، ثم يسوق سلب هذه المسائل أيضاً فى أضدادها . وهدف الكاتب من هذا المنهج الديالكتيكى أن يصل إلى الحقيقة — إن كان هنالك حقائق — عن طريق العقل ؟ كذلك بتمحيص مختلف وجود وأبعاد القضايا اللاهوتية . هو يبدأ دائما بإثبات بطلان حجج آباء الكنيسة الباكرين فى كل قضية يعرض لها . وشعاره فى هذا قوله : إن الشك يقودنا إلى البحث ، والبحث ، بدوره يؤدى بنا إلى مشارف اليقين » وقد طرح ابيلارد فى

هذا المؤلف ١٥٠ سؤالا تدور حول المسائل اللاهوتية العويصة كقضية ميلاد المسيح وتجسد الكلمة Logos ، وبتولية السيدة مريم ، ولاهوت المسيح وناسوته ، وتحول القربان إلى جسد السيد المسيح إلى آخره من هذه القضايا . وقد قدم أبيلارد تفسيراً لواحدة من كبرى المسائل اللاهوتية ، آلا وهى طبيعة الثالوث : فهو يرى أن الله واحد فى ثلاثة أقانيم ، ويشير كل أقنوم من هذه الثلاث إلى خواص: فالأب يمثل خاصية القوة ، والآبن يمثل خاصية الوعى ، بينما يمثل الروح القدس خاصية الخير . غير أن هذا التفسير الأبيلاردى قد أدين بالهرطقة فى مجمع Sens سنة ١١٤٢م كذلك هاجم القديس برنارد ده كليرفوه هذا التفسير بأنه شبيه بحجج الهراطقة المبكرين . آريوس وبيلاجيوس ونسطور .

ولقد وضع أبيلارد كتاباً آخر بعنوان « حوار بين فيلسوف ويهودى ومسيحى Dialogus inter Phiosophum, judaeum et Christianum ، يندد فيه بالتسليم الغيبي عند الثانى والثالث ، ويغلب عليهما الأول لأنه يقر ملكات العقل ، كما وأنه يهيب بضرورة انتهاج مبدأ الشك والديالكتيكا لأن هذا هو السبيل الأوحد للاقناع والفهم الراسخ .

وهو بعد هذا لا يجد حرجاً فى تناول كلمات الكتاب المقدس بالبحث ، وحجته فى ذلك أن هذا الكتاب إنما هو عمل الله ، نقله إلينا بشر مثلنا وهم عرضة للخطأ ، وسجله كتبة بشر ، ثم فسره لنا بشر أيضا ليسوا منزهين عن الخطأ ، ذلك لأن اللغة إن هى إلا أداة عاجزة للتعبير ، وهى أيضا عرضة للتعبير و التأويل .

وفى الأخلاقيات Ethics نقرأ أراء جريئة لأبيلارد فى مؤلفه بعنوان « أعرف نفسك » Scito te ipsum .

وعندما يعرج الكاتب على قضية الخطيئة الكبرى لآدم وحواء ، نجده ثائراً ضد آراء القديس أغسطينوس ومن ورائه الكنيسة الكاثولكية برمتها .

فهو لا يرى فيما أقدم عليه آدم وحواء من أكل الثمرة المحرمة فى جنة عدن إثماً وهو بعد هذا يميز بين الخطأ والإثم : فالأول يمثل ميلا نحو شيء محظور ، أما الاثم فهو العمل الذى يغضب الرب . ويمضى الكاتب ليجاهر بأن الاثم هذا عنصر سلبي لا وجود له ، فهو تضاد أو انتفاء أو غياب الخير ، فحيثما توافر الخير لا وجود للاثم . هذا كما أن أى فعل ماهو إلا حاصل نية ، ولا يمكن الحكم عليه بالخير أو بالشر إلا على ضوء استقراء هذه النوايا ، لمعرفة إذا ماكان صاحبها كان يقصد بها خيراً أم شراً .

ومن هنا فقد انتهى أبيلا رد إلى قوله : « لا فرق بين عمل وآخر فى حد ذاته وإنما يصبح هذا العمل خيراً وذاك شراً على قدر نوايا صاحب هذا العمل أو ذاك » . ومن هذا الاستنتاج أنكر أبيلارد حاجة الانسان إلى وصاية غيبية لتعينه على فعل الخير ، ومن ثم فلا حاجة ألبتة إلى الدوغما ولا إلى الكنيسة . وبهذا نقل أبيلارد موضوع الاخلاقيات من عوالم الغيبيات إلى كادر ذاتى بحت ، فحرر الانسان الفرد من الاوصياء ، وباتت الحقيقة برمتها الكونية ملكا للبشر الفرد على أساس من الفهم العاقل ، وأدار أبيلارد ظهره لمفاهيم الكاثوليكية وأرائها الغامضة عن الخير والشر .

بعد أن شن القديس برنارد ده كليرفوه حرباً مسعورة ضد أبيلارد ، تحداه هذا الاخير أن يلقاه فى حوار على مرأى ومسمع من أساتذة اللاهوت والفلسفة فى باريس . ولكن برنارد ارتعد من فكرة لقاء أبيلارد ولم يجرؤ على أن يلتقط القفاز الذى ألقى به الفيلسوف فى وجهه . ونجح برنارد بفضل صلاته القوية بتلميذه يوجين الثالث الجالس على عرش البابوية فى أن يدفع أراء أبيلارد بالهرطقة .

ولكن أبيلارد قرر أن يسافر بنفسه إلى روما ليطعن فى هـذا القرار ولـكن صديقه المخلص بطرس الشهير بالوقور Le Venerable رئيس دير كلونى أقنعه بالعدول عن هذه الرحلة ، واستضافه فى ديره فى سانت مارسيل على مقربة من بلدة شالون سيرساءون ، وبقى أبيلارد هنالك حتى توفى فى ٢١ ابريل لسنة ١١٤٢ م .

كتب بطرس الوقور رئيس دير كلونى إلى إلوايز — وهى الآن رئيسة دير الباراقليط — ينقل إليها النبأ الحزين فى الآتى :

« إن هذا الذى كان لك (tuo illo) ، المظيم بطـرس أبيلارد ، قد مات . لقد كان ثروة تفوق كنوز الذهب . لشد ما كان حريصا على حضور القداسات منكسراً صامتا لايرفع الطرف عن الـكتاب ، وهو سيد العلماء . نعم « تعلمـوا منى فأنا بسيط متواضع القلب » . أيتها الأخت التالية ، إن هذا الذى ربط الله بينـك وبينه ذات يوم فصرتما جسداًواحداً ، ثم ثبت الله هذا الرباط إلى ماهو أشد وأقوى فى المحبة العلوية حيث خدمة الله ركماً سجداً من بين الصابرين ، إن هذا الرجل قد ضمه المسيح إلى أحضانه مع القديسين ، وهو هنالك حتى المجىء الثانى يوم ينفع كبير الملائكة فى البوق ، ويومها يفرح القلب بالمحبوب فى رحاب الأبدية » .

لاأجد أبلغ من شعر أبيلارد فى التدليل على معاناته المأساوية . استمع إليه ينشد يوم الجمعة الحزينة ، لعله يقصد هنا أنه هو أيضا قد صلب على يد الآثمين :

Solus ad Victimam Procedis, Domine,
morti te Offerens quam Venis to Ilere :
qnid nos miserrimi Possumus dicere
qui quae Commisimus Scimus te Iuere ?

وحيدا ، ياسيدى تتقدم الخطى نحو القربان

واهيا نفسك للموت شامخا

فما الذى تستطيع قوله كى « نيمئه من جديد »

تلك الأشياء التى ارتكبناها نعرف أنك تعانيها »

بقى أن نحصر أهم مؤلفات هذا العملاق ، فى الآتى :

1 — Theologia Summi Boni
2 — Theologia Chlristiana
3 — Theologia Scholarium
4 — Apologia
5 — Sic et Ncn
6 — Expositio in Hexaemeron
7 — Expositio in Epistolam ad Romanos
7 — Scito te ipsnm
9 — Dialogne inter philosophum, judaeum, at Christianum
10 — Logica Ingredientibus
11 — Logica nostrorum Petitoni
12 — Dialectica
13 — De Intellectibus
14 — Sententiae
15 — Historia Calamitatum